

من تاريخ اللغة العربية (٤)

لهجتا قریش وتمیم والاختیار اللفوي

د. مسعود بوبو
جامعة دمشق

الملاحظ بوجه عام أن علماء العربية القدماء لم يولوا المظاهر اللهجية في زمنهم من العناية والاهتمام ما أولوه للهجتي قریش وتمیم اللتين خصوا السمات اللهجية المروية عنهما بفضل تأمل وتدبر ، لأن مظاهر الاختلاف بينهما أكثر تعددا وتنوعا ، وصلة باللغة الادبية العالية . ولأن القبيلتين تبوأتا منزلة بارزة بين قبائل العرب : دنيا ، وأدبيا ، وجغرافيا ، اذ احتلت تمیم مكان الصدارة في نجد ، واحتلت قریش مكان الصدارة في الحجاز ، وبلهجتيهما كثر الاحتجاج والاقتداء ، وعليهما قاس اللغويون فيما بعد ، إلا أن نزول القرآن بلهجة قریش رجع كفتها في الفصاحة ، ورفع مكانتها في الدين والحسب والنسب والمجد .

ولقد كان من مظاهر الاختلاف بين اللهجتين - على ما تروي كتب اللغة - الصور التالية :

- تحقيق الهمز عند التميميين وتسهيله أو تخفيفه عند الحجازيين ، فالحجازيون كانوا يقولون مثلا : بير ، فواد ، بیس .. في « بئر » ، « فؤاد » ، « بئس » . وعلى ذلك قراءة نافع وأبي جعفر (من أشهر قراء المدينة) : (وبیس المهاد) و (أصبح فواد أم موسى فارغا) و (خاسيا وهو حسير) بدلا من « بئس » و « فؤاد » و « خاسئا » . والتميميون يحققون الهمز في هذا كله ، بل ربما بالغوا فهمزوا ما ليس بهموز أو نبروه . وتلك ظاهرة فاشية بين العرب غالبية على التسهيل . قال ابن الجوزي : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا ، وأبعدها مخرجا ، تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف ، كالنقل ، والبدل ، وبين بين ، والإدغام وغير ذلك .. وحكى المبرد بسنده عن أبي زيد الأنصاري أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) بهمز « جان » . قال أبو زيد : فظننت قد لحن ، السى أن سمعت العرب تقول : شابة ، مادة ، دابة ، وعليه قول كثير :

نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد ٢٤/٢٣ (١٩٨٩) ، والثانية في العدد ٢٨/٢٧ (١٩٩٠) والثالثة في العدد ٤٨/٤٧ (١٩٩٣) .

دراسات تاريخية ، المجلد ٩٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤

إذا ما العوالي بالعبيط احمارت (١)

ومن ذلك قول بعضهم : لبأ بالحج تلبئة ، وأصله [لبني] غير مهموز . قال الفراء : ربما خرجت بهم فصائحهم الى همز ما ليس بمهموز ، قالوا : لبأ بالحج ، وحلاً السويق ، ورأى الميت . . والمشهور أن العرب تركت الهمز في كلمات معدودات لكثرة الاستعمال نحو : الخاية من خأ ، والبرية من برا الله الخلق ، والذرية من ذرا الله الخلق . . وعلى العموم فإن الأكثر عند العرب الهمز ، وعلى ذلك نزول القرآن واختياره نبر الهمز لغة فصيحة ، وإن لم يلزم الحجازيين بتحقيقه ، لذا كان أهل مكة والمدينة لا ينبرون الا اذا اضطروا وأرادوا محاكاة التميميين استئطافاً لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم ، أو خروجاً على سليقتهم في تسهيل الهمزة في غير لهجات خطابهم العادية ، لشعورهم بأن تحقيق الهمزة في الاساليب الادبية من شعر وخطابة أقرب الى الفصاحة من تسهيلها ، يقول سيبويه : « ليس أحد من العرب الا ويقول تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية ، الا أهل مكة ، فانهم يهمزون هذه : لا حرف (يعني الكلمات) ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك » (٢) . وجاء في « لسان العرب » أن قريشاً وأهل الحجاز لا ينبرون سوى الهمزات التي يبتدأ بها (٣) .

ومعيار الترجيح العام لتخفيف الهمز أو تحقيقه عند العرب يتوقف على المعنى ، فهو العمدة أو ما يحتكم إليه في التفريق بين معاني ما يهمز وما لا يهمز من الكلام ، وعليه تنبني نتائج خطيرة ، من مثل ذلك ما جاء في معجم « مختار الصحاح » لابي بكر الرازي ، قال : أدفيت الجريح : أجهزت عليه . وفي الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم أتني بأسير يوعك ، فقال لقوم : اذهبوا فادفوه » ، وأراد الدفء من البرد ، فذهبوا به فقتلوه ، فوداه صلى الله عليه وسلم (٤) ، أي : دفع ديته .

— ومن وجوه الاختلاف بين اللهجتين إدغام المثلين عند التميميين وفك هذا الإدغام عند الحجازيين ، ويمثلون للهجة تميم بقول شاعرها جرير بن عطية الخطفي :

فغض الطرف إنك من تمير فلا كعباً بلفت ولا كلاباً

وغض (فعل أمر) يقال بلهجة قريش : اغضض ، وعلى ذلك قوله تعالى : (واغضض من صوتك) ، وعلى غرارها جاءت أمثلة متعددة في آيات أخر ، ولكنها قرئت بالإدغام عند تميم ، كما لو ف نطقنا اليوم في أقطار العربية .

– ومنها : إبدال المد في القافية نونا عند التميميين تسمى نون الترثم ، وحذف هذه النون عند الحجازيين ، نحو قول جرير في رواية لبيته المشهور :

أقلى اللوم هازل والعتابن وقولي ان اصببت لقد اصابن
أما الحجازيون فيقولون ذلك :

أقلى اللوم عازل والعتابا وقولي ان اصببت لقد اصابا
– ولعل من أوسع أمثلة الاختلاف بين اللهجتين ما يتصل بالحركات ، أو بالعلمل القصيرة Short Vowels (الضمة والفتحة والكسرة) سواء في الاسماء أم في الأفعال نحو :

– حصاد ، قطاف ، حج .. هي عند تميم بفتح أوائلها ، وعند قريش بالكسر .
– أسوة ، قدوة ، مرية(ه) ، مدية ، رضوان ، غلظة .. هي عند تميم بضم أوائلها ، وعند قريش بالكسر .

– ومنها : اختلاف القبيلتين في التسكين والتحرك ، فمن القرآن الكريم نذكر الأمثلة التالية : (قدرة ، جزء ، أكلها ، القدس ، رسلنا ، السحت ، عسراً ، نكراً ، خطوات ..) ، قرئت كلها بالتسكين (على الحرف الثاني منها) في لغة تميم وأسد ، وبالتحريك (بالضم) عند أهل الحجاز .

– واختلفت القبيلتان في عين الفعل ، في المضارع ، بين الفتح والكسر ، فكانت أمثلة كثيرة ، كالأفعال : (زهد ، حقد ، نزع ، حسب ، بطح ، نحت ، قحل ..) مكسورة عين الفعل عند تميم ، وعند قريش مفتوحة العين . ولعلها المرة الأولى التي نرى الحجازيين فيها يميلون إلى الفتح في النطق ، ويفضل التميميون الكسر ! . ومن شواهد ذلك في الاسماء قول قريش : الشفع والوتر (بفتح الواو) ، وتميم تقول بكسرها .

– ومما يتصل بالحروف والاصوات نجد أمثلة متعددة تتناولها كتب اللغة دونما تعليق أو تحليل ، مكتفية بعزوها إلى القبيلتين ، كل بحسب نطقها ، فإذا ما تأملتها في إمعان ومقارنة وجدت أنها لا تنقاد لحكم عيام يمكنك من استخلاص خصائص كل من اللهجتين ، وإليك بعض ما قيدوه من ذلك :

تميم تقول : ثومها ، اللثام ، وقريش تقول : فومها ، اللغام (تبادل الحرفين : ث ، ف) .

تميم تقول : شمر عن صاقه ، الصماخ وقريش تقول : شمر عن ساقه ، السماخ (تبادل الحرفين : ص ، س) .

تميم تقول : افلطني الرجل افلاطا ، فحسب برجلك ، وقريش تقول : افلطني ، افلاتا ، فحست (تبادل الحرفين : ط ، ت) .

تميم تقول : قشطت الجبل عن الفرس ، وقريش تقول : كشطت الجبل عن الفرس (تبادل الحرفين : ك ، ق) .

تميم تقول : فاضت نفسه (خرجت) ، وقريش تقول : فاضت نفسه (تبادل الحرفين : ض ، ظ) .

تميم تقول : قلنسوة ، مبيوع ، مديون ، وقريش تقول : قلنسية ، مبيع ، مدين (تبادل الحرفين : و ، ي) .

تميم تقول : صوام ، نوام ، صواغ ، موائيق ، وقريش تقول : صيام ، نيام ، صياغ ، ميائيق (تبادل الحرفين : و ، ي) (٦) .

والذي يمكن أن نلاحظه على هذه الامثلة بوجه عام هو أن نطق قبيلة تميم يميل الى تفضيل الاصوات المفخمة ، المجهورة (الشديدة) والمستعلية غالبا عوضا من الاصوات المهموسة ، الرخوة ، الرقيقة ، كما يمكن أن نستنتج من تأمل صفات هذه الحروف ومقارنة بعضها ببعض . ولكن هذا الحكم ليس مطردا ، لان امثلة اخرى تروى نقيض هذه ، او على الاقل : لا تتفق معها نحو قولهم :

تميم تقول : قليت البر قلياً وقريش تقول : قлот البر قلوأ . فها هنا نجد ان قريشاً هي التي مالت الى الواو بخلاف الامثلة السابقة . وقل مثل ذلك في : فرغ يفرغ فراغاً (بلفة تميم) ، وهي بلفة قريش : فرق يفرغ فروغاً .

ورب باحث يقول : قريش تميل الى المد (٧) ، او الحجازيون يفضلون الكسر (٨) ، وشاهد المد عند قريش قولهم : أولاء (في اسم الإشارة للجمع) ، على حين تقول تميم فيه : أولي . ولكن هذا وحده لا يكفي ، لان قريشاً تقول مثلاً : أوصدت ، فلا تمد ، في

حين تقول تميم : أصدت ، فتمد . ولقد سلف تقييد امثلة تشير ايضا الى ان قريشا لا تفضل الكسر وحده ، بل هي تفتح عين الفعل المضارع في مثل : زهد ، جحد ، والاسم في الوتر . وقريش تقول : برأت ، وأنا منك براء ، (فتفتح) ، و تميم تقول ، برئت ، وأنا منك بريء (فتكسر) . و (نستعين) من سورة الفاتحة مفتوحة النون في لغة قريش ، وقراءتها بالكسر لغة تميم واسد وربيعة (٩) .

وقد يقال مثلا: ان لهجة تميم تميل الى الهمز (١٠) بدلا من الواو ، يقولون : اكدت ، وقريش تقول : وكدت . ويقولون : اكاف ، وقريش تقول وكاف . ولكن هذا الحكم يتعارض أيضا بقول قريش : ذاي البقل يذاي ، وبقول تميم : ذوي يذوي ، فتميل هنا الى الواو عوضا من الهمز . وكذلك تقول قريش : ايها فتميل الى الهمز ، وتقول تميم : هيهات .

وفي الاعراب قد تتفق القبيلتان ، ولكنهما مع ذلك تختلفان في الاسم او الاداة ، وقد يكون العكس ، فقريش مثلا يقولون : ما رأيت منذ يومين ، او يومان . في حين تقول تميم : ما رأيت (مذ) يومين ، او يومان . الاعراب متفق ، ولكنهم اختلفوا في منذ ، ومذ . وعلى النقيض من ذلك تنصب قريش خبر (ما) النافية ، وليس في الارض حجازي إلا وينصب - كما يقول ابو عمرو بن العلاء (١١) . ولا في الارض تميمي الا وهو يرفع . وعلى لهجة الحجاز قرئت الآية الكريمة : (ما هذا الا بشر) . أي انهما تختلفان في الاعراب . وكذا الامر في نصب الخبر المستثنى ورفع في النفي بليين في مثل قولهم : ليس الطيب الا المسك او إلا المسك . الحجازيون ينصبون و تميم يرفعون .

و تميم تقول : الاله يلبته (حبسه او انقصه من حقه) ، تعديه بهمزة ، وقريش تقول : لاته يلبته (بالثلاثي) . ولكن تميمًا تقول ايضا : هلكه ، بمعنى : اهلكه ، فتخالف بذلك الشاهد السابق نفسه .

وفي الاصوات والصرف ثمة الفاظ تجيء ساكنة في لهجة تميم نحو : جمنعة ، حمر ، كبد ، فخذ . . وتجيء محركة الموضع في لهجة قريش .

واهل الحجاز يقولون : خمس عشرة (خفيفة) لا يحركون الشين ، و تميم تثقل وتكثر الشين ، ومنهم من يفتحها . واهل الحجاز يقولون : جونة (بغير هميز) ، و تميم تقول : جونة (بالهمز) . وفي القلب لاهل الحجاز يقولون : لعمري ، و تميم تقول : لعملي .

ـ ولعل من ابرز وجوه الاختلاف بين لهجتي القيلتين ميل الحجازيين الى تأنيث كثير من الاسماء التي هي موضع نظر ، او تقال بالتذكير مرة وبالتأنيث مرة في كتب اللغة والمعاجم ، نحو : العنق ، العضد ، الطريق ، السبيل ، السوق ، التمر ، البنصر ، الشعير ، البر ، الذهب . . على حين يميل التميميون الى التذكير فيها (١٢) . وقد يبدو هذا موضع استغراب ، حتى لقد رأى المرحوم الدكتور صبحي الصالح انه « لا يمت الى المنطق العقلي بصلة » (١٣) . وفيه بعض تسرع ، ذلك ان الظواهر اللغوية ليست منطقية أصلاً ، ولا اللغة نفسها منطقية دائماً . ولعل ما يفسر هذا الميل عند الحجازيين وفي شمال الجزيرة العربية الى التأنيث شيوع الآلهة المؤنثة هناك قديماً اكثر من جنوبها ، ويبرز هذا خاصة في لهجة كنانة ، وكانهم كانوا يتفاءلون بتلك التسميات او يتلذذون ويتحجبون .

نخلص من هذا الى ان قريشا غالبا ما كانت اقرب الى اساليب القول والنطق السليم عند العرب واكثر توافقا مع لغة القرآن والموروث الادبي ، وان تميماً لا تخلو في نطقها من كلفة وكزازة قد ترجعان الى طبيعتها البدوية ، وتلك فكرة يميل اليها الدارسون ، ويقويها التحليل الصوتي في الامثلة التي استعرضناها مقارنين بين صفات الحروف . اي ان سمات الخشونة والبداوة تلمح غالبا في اساليب تميم اللهجية ، يقابلها في لهجة الحجاز رقة لا تخفى في الدوق والالسنه ، وقد يفاضل الدوق السلمي من ذلك بين نطقي القاف المعروف في القراءات القرآنية اخذا بلهجة الحجاز ، وبين القاف التميمية التي تلحق باللهاء فتكون بين القاف والكاف ، او بين القاف والكاف والجيم (القاهرة) غير المعطشة ، كما في قول شاعر تميمي :

ولا اكل لكدركوم : كد نضجت ولا اكل لباب الدار مكفول (١٤)

ولولا ان بقايا هذه اللهجة ما تزال مسموعة في كثير من المناطق العربية الى اليوم لظن ان هذا البيت متكلف مصنوع رصفت فيه (القافات) عمدا بهذا النطق لبيان مصداق حكمهم على لهجة تميم بالخشونة والمخالفة .

لقد توقفنا عند لهجتي تميم وقريش قليلا لان المظاهر اللغوية فيهما ادعى الى التأمل والمدارسة مما سبق وعرضنا له من القاب اللهجات الاخرى التي تطفئ عليهما البخائص الصوتية النطقية . ففي اختلاف لهجتي تميم وقريش رأينا ان الهمز قد يؤدي ـ بين تسهيله وتحقيقه ـ الى تغيير المعنى كما في لفظة (آدفوه) التي يسلف ذكرها ، أي ان في اللهجتين ما يتصل بالجانب الدلالي ، كما فيهما ما يتصل بالعرف والتجويد (في ادغام المثلين نحو : اغضض وغض) ، وفيهما ما يتصل بالجانب الاهرابي .

ومثل هذه الخصائص لا بد أن يكون لها اثر ملحوظ في العربية الفصحى ، ولعل أسلم الطرق الى التماس هذا الاثر أن نحتكم الى لغة القرآن ، والى احتجاج النحاة واللغويين ، عند ذاك سنجد القرآن يتضمن شواهد من اللهجتين ، وخاصة في تذكير الاسماء وتانيثها ، كما نجد أن اللغويين يستشهدون باللهجتين وبشعرهما ونثرهما عامة على صحة اللغة . وفي النهاية يتبين لنا أن ظواهر اللهجتين ليست مطردة - كلاً على حدة - ولا ملتزمة ، أو تمثل قواعد صارمة نص النحاة على الاخذ بها وحدها في الاساليب ، أو جعلوا القياس وقفاً على احدهما . انما الذي يستخلص من كتب التراث يفيد أن كلاً من القيلتين التزمت بخصائصها اللهجية المحلية التي سلف ذكرها . وكان لكل قبيلة (لحنها) الخاص الذي تلهج به وعاداتها الصوتية التي تتمسك بها وتبقي عليها فلا تلقن غيرها الا على قلة وبطء . لكن العامل المؤثر في حركة العربية الفصحى ، في هذه المرحلة كان الدين الاسلامي ، والدين على مر العصور من أبرز العوامل المؤثرة في تاريخ اللغات . فالقرآن الكريم ، كتاب المسلمين المقدس نزل بلهجة قريش بصفة غالبية ، مما ادى الى من شأنها وأحلها مكان الصدارة بين لهجات القبائل العربية كلها . وقد زاد من مكانتها - فيما بعد - ما روي ونص عن الاخذ بها . من ذلك ما رواه البخاري في « صحيحه » عن انس بن مالك من أن الخليفة عثمان بن عفان لما أمر بجمع القرآن عهد بذلك الى (لجنة) رباعية مؤلفة من زيد بن ثابت من المدينة ، ومن عبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكلهم قرشيون ، ثم قال للرهب القرشيين الثلاثة : « اذا اختلفتم اقمتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم » (١٥) .

وروي أن عمر بن الخطاب كتب الى ابن مسعود : « أن الله عز وجل انزل هذا القرآن فجعله عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام » (١٦) .

وروي عن زيد بن ثابت حين أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الانصار ، أنهم منعه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش (١٧) . وهذا ما ارتقى بلهجة قريش الى مرتبة التقديس وجعل منها مقياساً أساسياً لسلامة العربية الفصحى وصحة الاحتجاج .

اما العامل الثاني الذي رجح كفة قريش على غيرها شيئاً فشيئاً فهو « الاختيار » اللغوي الذي اثر عنها ، ولكن عملية الاختيار التي انتهجتها قريش من الفاظ القبائل الاخرى واساليبها لم تكن تستند الى شرائط معينة ، ولم تكن خاضعة لقوانين معلومة تلزم بها ، انما نستخلص من الاخبار اللغوية والتاريخية الكثيرة انها كانت تتجنب اخذ

الغريب للتقعر ، وترد الشعر أو تقبله عندما يعرضه عليها الشعراء كاستحسانها لقصيدة علقمة بن عبدة التميمي التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم جلبها إذ تأتلك اليوم مصروم
والتي قالوا عليها : هذا سمط الدهر . ثم عاد اليهم في العام التالي فأنشددهم قوله :
طحا بك قلب في الحسان طروب بعيند الشباب عصر حان مشيب
فقالوا : هذان سمطا الدهر ، أو هاتان سمطا الدهر (١٨) .

وبسبب هذه المركزية الدينية والأدبية والاستقرار والتكامل انتشرت لهجة قريش وسادت في الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، وزاحمت اللغة الخمرية في الجنوب حتى باتت أداة التفاهم بين الوفود اليمنية وحملة الشريعة الإسلامية اليهم من مبشرين بها وداعين لها بين العرب الجنوبيين ، في مستهل الدعوة الإسلامية .

ومع هذا كله يبقى من العسير القول ان لهجة قريش كانت تتصف بخصائص مميزة هي كذا وكذا . . لانها لم تصل الينا خالصة وبخصائصها الدقيقة كما كانت عليه في الاصل ، انما وصلتنا حاملة خصائصها وقدراس من خصائص اللهجات الاخرى التي احتكت بها واقتبست منها ايضا ، واللغويون أو المؤرخون لم يعميخوا تلك المقتبسات على وجه الدقة والتحري ، بل ان ما وصل الينا من ذلك التراث اللغوي هو ما صيغ أو كتب بعد تكون هذه العربية الفصحى في آخر مراحلها قبل الاسلام ، أو بعد تغلب لهجة قريش ، وان ما سنه اللغويون والنحاة من احكام اخذ اللغة والاحتجاج بها لم يقتصر على قريش أو يقف عندها على وجه التخصيص أو التمييز ، بل هناك من كان يذهب الى أن سلامة اللغة في بني سعد أفضل واصح مما في قريش ، لان بني سعد أهل وبر وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالاعاجم على الرغم من عددهم قريشا أفصح العرب مع ما كان منهم من اختلاطهم بغيرهم في المواسم والتجارات والرحلات .

وامام هذه الظواهر اللهجية التي بدت مقلقة أحيانا لم يجد اللغويون القدماء مفرأ من التحوط والتشدد في شرائط اخذ اللغة واضعين في الحسبان استقرارهم العام لمجمل مادتها ، ولواقعهم العربي ، وموفقين بين الجانب الديني والقومي (من جهة اختلاط العرب بغيرهم) ، مع مراعاة أهمية الجانب المكاني (الجغرافي) ، والجانب الادبي المتمثل بلغة الشعر خاصة ، فكانوا بهذا واضعي أهم شروط أخذها واستنباط قواعدها والاحتجاج بها مستقاة ممن لا تشوب غريبتهن شوائب اللكنة الاعجمية أو الرطانة الدخيلة ، أو مستبشع اللهجات العربية المدمومة ، فقالوا :

« وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم ، واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب ، الا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ، ولا عجر فيه قيس ، ولا كشكشة اسد ، ولا كسكة ربيعة » (١٩) .

وقالوا : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم ، واسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجمله فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقيط . ولا من قضاعة وغسان وإسباد لمجاورتهم اهل الشام ، واكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر (٢٠) فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس واسد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم (٢١) .

ومن خلال القولين يتجلى واقع جمع العربية في تخير احسن لهجات العرب واملحها واصفى الكلام وافصحها ، ومعيار الفصاحة عند علماء اللغة هنا - كما هو ظاهر - يتوقف على مدى صلة العرب بالاعاجم . وابواب هذه الصلة : اما الحواضر التي كانت مسرحا للتجارات ، او عقدة للمواصلات ، وإما اطراف بلاد العرب حيث يسمح الاختلاط بالاقيام غير العربية بقدر من التأثير اللغوي يؤدي الى افساد الالسنه . وهذا كله جعل لهجة قريش وللقبائل الفصيحة القريبة منها اعتبارا خاصا ، وكون من ذلك نواة لغوية صارت هي المناط والمحتكم للاخذ والاحتجاج . ويمكن ان نستشرف في هذا المسلك لونا من التخطيط ، أو التصميم على صيانة هذه اللغة من افسادها بالالسنه الاعجمية ، أو بالظواهر اللهجية غير المستحبة ، أو غير المطردة عند مجمل القبائل العربية نفسها .

ولكن هذا التأسيس لاصالة العربية لم يبلغ اسهام القبائل القاصية والدانية بنتاجها الادبي في تغذية تلك النواة اللغوية التي كانت بمنزلة القلب من العرب وجزيرتهم ،

كما لم يفترض وضعا متشددا يحول دون أخذ القرآن منها ، أو دون التيسير لها بالقراءة على مقتضى لحنها ولهجاتها ، أو الاستشهاد بلهجاتها في النحو والتقديم . وهذا ما يفسر نزول القرآن الكريم منجماً وعلى سبعة أحرف وتضمنه كثيراً من لهجات (أو لغات) القبائل الأخرى ، وكتاب عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ) المسمى « اللغات في القرآن » خير شاهد على ذلك .

وعلى هذه الصورة يمكننا أن نحيط نشأة العربية الفصحى بحلقات أو دوائر مركزها لهجة قريش وما جاورها من القبائل التي لم تختلط بالاعاجم ففسد السنتها (كما عبروا) ، ثم الدائرة التي تحيط بهذا المركز متمثلة بلهجات القبائل العربية الأخرى ، تليها دائرة اللغات المسماة بالسامية والتي كانت تحيط بقلب الجزيرة العربية أو تتغلغل فيها كالعبرانية والسريانية والنبطية .. وما تذكره كتب اللغة عن (الألفاظ النصرانية) التي وردت في اشعار عدي بن زيد العبادي ، وأبي ذؤاد الأيادي ، وامرئ القيس ، والناطقة الذبياني ، والمرقش الأكبر ، وأوس بن حجر ، والقحيف العقيلي (٢٢) . فضلا عن اشارات موزعة هنا وهناك تذكر الحواضر وفساد لغة مرتاديها ، وتذكر الحبشية والسريانية والجميرية وغيرها . يضاف الى ذلك ما احاط بالعربية من لغات اعجمية كالفارسية والرومية والهندية .

ولكن امرا أساسيا يعرض هنا ، وهو حري بالآ يفغل ، وأعني به أن لغات القبائل التي احتكت بها لغة قلب الجزيرة العربية (قريش وما جاورها) وتأثرت بها لم تسجل ، وبالاقتصار على استقرائنا لما وصلنا من معلومات عن هذه اللهجات العربية تكون جوانب لا يستهان بها من طفولة العربية قد بقيت غامضة ، ولعل الكشف الاثري تسهم - مستقبلا - في القاء الضوء على تلك المرحلة المبكرة التي لم نحظ بجوانبها كاملة ونستقص اخبارها بالتفصيل .

بهذه الصورة ورث الاسلام اللغة العربية الفصيحة التي نزل بها كتابه العظيم ، وفي ضوء هذه الاعتبارات كلها يمكن تفسير وجود الفاظ يسيرة من القرآن جاءت بلهجة قبيلة نائية ، أو بلغة اعجمية .. ولكن هذا كله لا يغير وجه الحقيقة الكبرى الثابتة ، وهي ان الاسلام عند ظهوره وجد العرب قد هيئوا له لغة أدبية موحدة ، تملك من وسائل الفنى والصلاح ما يجعلها جذيرة باستيعاب رسالته العظيمة وحملها الى البشرية .

الحواشي :

- (١) المحتسب في شواذ القراءات : ٤٧/١ ، تح : علي التجدي ناصف وآخرين (القاهرة ١٣٨٦ هـ) ، واللسان / جنسن ، خبأ . والمبيط من السدم : الخالص الطري . واحمات أصلها : احمارت (بتشديد الراء ومن غير همز) .
- (٢) اللسان / نبأ ، ودراسات في فقه اللغة ، الصفحات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، المتن والهامش .
- (٣) مختار الصحاح / د ف ا ، وتاج المروس ١٢٨/١ ، والمخصص لابن سيده ١٤/٢-٦ (ط بولاق ١٣١٦) فئمة شواهد أخرى ، منها على سبيل المثال : كلاته اذا حرسته ، وقد كليته اذا أصبت كليته ..
- (٤) سورة لقمان : ١٥ .
- (٥) المرية : الشك . ومثلها : القنوة ، أي : الكسبة (بالضم عند تميم وبالكسر عند قريش) وكذلك صنوان .
- (٦) يسمى هذا في اللهجات : المعاقبة أيضا ، تعاقب الواو مع الياء . فقد روي عن الأصمعي قوله : سألت المفضل عن قول الأعشى : لعمرى لمن أمس من القوم شاخصا لقد نال خيصا من غفيرة خائصا فقلت : ما معنى : خيصا خائصا ؟ فقال : أراءه من قولهم : فلان يخصوص المعطاء من بني فلان ، أي يقلله ، فكان خيصا شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصا . قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوفا ، إذ هو من قولهم : هو يخصوص المعطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لأهل الحجاز (المخصص ١٤/١٩ ، ط أولى - ببولاق ١٣١٦ هـ - ١٣٢١ هـ) .
- (٧) كما جاء في « دراسات في فقه اللغة » ص ٨١ ، نقلا عن « شرح شذور الذهب » ص ١٦٤ .
- (٨) نفسه ص ٩٦ ، وص ١٠١ .
- (٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٦/١ ، والصاحبي : ٤٨ ، والمزهر ٢٥٥/١
- (١٠) من ذلك أيضا عزو لهجة المنعنة اليهم ، (كما مر) .
- (١١) انظر النص في « المزهر » ج ٢/٢٧٧ (ط . الهلال ١٣٢١ هـ) . وفي غيره ..
- (١٢) المزهر ٢/٢٧٧ .
- (١٣) دراسات في فقه اللغة : ٨٢ .
- (١٤) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس : ٥٤ ، والبيت هو : ولا أقول لقدر القوم قد نضجت ولا أقول لباب الدار مقفول وفي « بحر العوام » : ولا أقول لقدر القوم : قد غليت ولا أقول لباب الدار مقفول .
- أضاف المحقق بعده : لكن أقول لبابي مفلق وملت قدري وقابلها دن وابريق انظر : « بحر العوام فيما أساب فيه العوام » للحنبلي الحلبي : ١٩ ، تح : عز الدين التنوخي ، مجمع دمشق ١٩٣٧ .
- (١٥) الاثنان في علوم القرآن للسيوطي ١/٥٩ (ط . القاهرة ١٩٣٥) .
- (١٦) المحتسب لابن جني ١/٣٤٣ .
- (١٧) كتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني . صححه الدكتور آرثر جفري (ط . الرحمانية - القاهرة ١٩٣٦) .
- (١٨) انظر « معاهد التنصيص » : ٨٥ ، والأغاني ١١٢/٢١ (ط . الساسي) والقاموس المحيط / عبد .
- (١٩) الصاحبي في فقه اللغة ص ٥٣ .
- (٢٠) نقلها السيوطي ، أو نقلت عنه مصحفة عند بعض الباحثين (اليمن) ، ولعل ما أثبتناه هو الوجه ، مع الإشارة إلى أن هناك من تنبه لهذا السهو قبلنا . وانظر المزهر ١/٢١١
- (٢١) المزهر ١/٢١١ . وكان يمثل هذا الاتجاه خاصة علماء البصرة .
- (٢٢) ينظر في ذلك : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٢٨/١ ، والموشح للمزباني ٧٣ .

